



محمد عفيفي مطر والكتابة على قشرة الليل

الحياة أسئلة؟ بعضها لها إجابات وبعضها الآخر يظل بلا إجابة.. ويبدو أن الأسئلة الحائرة تزداد يوماً عن آخر.. وهذا سر الإبداع في مجالاته المختلفة.. فلو استطاع الإنسان أن يجيب على أسئلة الحياة جميعها.. فإن الإبداع الإنساني يصل إلى منتهاه.. وتنطفئ جمرته المتوهجة..

ووقفنا اليوم مع شاعر متعدد الأسئلة.. أضنته الحياة فصار يواجهها بالأسئلة ويكتب على قشرة الليل.. ويسقط الأقنعة ويحارب الزيف والخداع.. ويغمس أيديه في الطمى والدم وهو يكابد هذه الحياة القاسية.

وهذا الشاعر هو محمد عفيفي مطر الذي ولد عام 1934 في قرية (رملة الأنجب) بمحافظة المنوفية.. ورحل عن دنيانا في 29 يونية عام 2010.

دخل عفيفي الكتاب.. ثم المدارس وحصل على دبلوم المعلمين ثم ليسانس الآداب قسم الفلسفة من جامعة عين شمس ليعمل مدرساً في التربية والتعليم.

رأس تحرير مجلة سنابل التي كان يصدرها من محافظة كفر الشيخ (1968-1972).

أصطدم بحكم السادات وعارض اتفاقية كامب ديفيد فهرب إلى السودان ثم إلى بغداد.. وعمل هناك محرراً في مجلة الأقلام العراقية (1977-1983).

وحينما انتهى عصر السادات عاد إلى مصر لعله يجد مناخاً صالحاً لموهبته الإبداعية.

وبدأ يشارك في الأنشطة الأدبية والثقافية وحصل على جائزة الدولة التشجيعية والجائزة التقديرية وجائزة كفافيس وجائزة العويس الثقافية.

وفي عام 1991 اعتقلته السلطات المصرية في ليان طره لمعارضته السياسة التي اتخذتها مصر من حرب الخليج الثانية والتي استهدفت إخراج الجيش العراقي من الكويت.. ثم أفرج عنه وبدأ يمارس حياته بحرية كاملة..

ولعيفي أعمال شعرية كثيرة ودراسات وأعمال للأطفال ويعد من الشعراء الذين أضافوا ملمحاً مختلفاً لخريطة الشعر المصري المعاصر.

وهذا محمد عفيفي مطر يكتب عن غربته (منفاه الاختياري) في بغداد فيقول:

كان جرحي غربة مكتوبة فوق جبيني

علمتني رقصة الموت الرشيق

يومها.. حط على صدرى صقر معدنى

من لغات الأرض من أجناسها

ينقر القلب..

تعرفت بعينه على موتى الصديق

حجة الله على صمت الملايين المدانة



يومها .. كان كتاب الذاكرة
برعم النار .. رماد الخطبة
قطعوا رأسى فأبصرت به يهرب
مخبوء بأسرار الكهانة
فابحثى عن جسدى الضائع
فى أزمنة الهدم
خذيلى لك طفلاً
يقطع الغربة شعراً وبكاء
وخذيلى لك زوجاً وإماماً

ترى هل استطاع أن يستمرئ هذه الغربة ويحيلها إلى حياة يسيرة أو
يتجرعها لكونها بعداً عن الوطن والأهل والأصدقاء..
إنه يتذكر مطاردة الشرطة له فى كل مكان فيقول:
أرى عيون الشرطة السرية
تلمع من وجه إلى وجه
تسكب الوجوه فى الشوارع الخلفية
كل قفا وراه عينان
تخرقان ظلمة النخاع
تسألان عن هواجس الهوية

لم يكن اختياراً أوحد أن يعيش في الغربه.. لكن الأمر بين يديه لم يكن
منه مفر:

قلت أمشى في عروق الأرض أشهد
ساحة البدء المجلجل والختام
كيف استتمت نارها ورمادها
في الخطوة الأولى
وكيف انشق من مهل الغمام
برق من الدم فاستضاءت تحته الأطلال والأحداث
وهو يصور السلطة تصويراً خاصاً نابعاً من خبرة وواقعية وقد بلغت
ذروة هذا التصوير في قوله:

إن الكلاب ملوك
والمملوك دمي
والأرض تحت جيوش الروم تنجرف
فاخرج طريد بلاد كنت تحرثها
حرث العبيد..

ويدخل عفيفي السجن.. ويلقى الإهانة والتعذيب.. ويرى وجوها غير
الوجوه.. وأعيناً غير الأعين.. وجدرا نا غير الجدران:
شربت مرق الأحذية المنقوعة
في الخوف والنحيب



أكلتُ ما يخبره الأسفلت
في جوفه من حنطة التعذيب
وافترشت جوارحي
حشيةً..

تملأها بالملت..

الأوجه المقلوبة

والأعين المثقوبة.

وهذه قصيدة (هلاوس ليلة الظمأ) التي كتبها عفيفي في معتقل طرة عام
1990 تفيض بالأسى والرؤية الفلسفية الخاصة.. فيقول:

أهذى..

أم هي الزلزلة انفتحت

على زمانين واتسعت على هول المكان

ريق وجمرة حنظل

تشقق الشفتان:

- يا عبد العليم

ما للجرار اذ حرجت والقلعة الفخار عفرها الرماد

والمالح والنهر القريب مشقق

ما للتحاريق ارتعت



بالجمر والنسج المهلهل أعظمى

وأديم هذا الليل يا عبد العليم.

تلك كانت مقدمات الاعتقال حين ترك قريته الصغيرة - الحرية -

العدالة - الفطرة - البساطة - إلى زنزانة قبر فيها الزمان على الهول والقهر.

ثم ها هو يصف ما يحدث في المعتقل حين تجئ نوبة الندم:

قال المخنث للمخنث

إن نوبة نومه اقتربت

فأخرس صوته بعصاك

فانفجرت برأسى الصاعقة

كان الصدى متشظيا بدم الهلاوس

آه يا عبد العليم

ويتذكر في هذا الليل الصامت أهله وأفراحهم وموالدهم وكيف كان

أبوه يلبس القفطان الزهري.. والشال المرفرف وفي يده العصا.. ويدخل

المولد فيرحب به الجميع ويحيونه..

إنه في هذه الزنزانة المظلمة يحيلها إلى ذكريات وأحلام مستحيلة ولأنه

شاعر.. فلا بد أن يتمرد على هذه الظلمة ويخلق منها النور والبهجة..

ولسان حاله يقول:

نجمة الصبح على وشك الطلوع



بين مائين..

السحاب الأصهب الأشهب

أقدام من السعى الهيولى

على وجه المياه

خطوة هائلة الوجهة

ماء كل شئ

كل شئ ليس ماء

لقد استطاع عفيفي أن يسعى فى النور والظلمة معاً.. لكنه لم يكن
يتطلع سوى للحرية والعدالة فى عالم يفتقد كل شئ.. وحينما أحس بالتعب
فضل أن يودعنا.. ويموت وهو واقف كالأشجار.